كي تَجْلُوَ مِرآةَ قَلْبِكَ مِن الظُّلُمات

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(الهدي النبوي والإرشادات المحمدية)

من الصفحة ٢٠٣ حتى الصفحة ٢١٣

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناءً على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

ذكـــرى

ينبغي للمؤمن أن يُكثر من الاستغفار لِيَجْلوَ مِرآة قلبه من ظلمات الذنوب، فإنَّ للذنوب ظلمات، إذا كثرت واستحكمت تحجب القلب عن أنوار تجليات الرب سبحانه وتعالى، كما هو شأن المرآة إذا تَـغَشَّـاها الدخان أو الغبار، فإنه يحجب الرؤية فيها، ويدل على ذلك ما تقدم في الحديث: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب وَنَزع واستغفر صُقل ـ أي: قلبه منها ـ وإن زاد ـ أي: في الذنب وعاد إليه ـ زادتْ ـ أي: النكتة السوداء ـ حتى يُغلَّف بها قلبه» إلى تمام الحديث كما تقدم برواية الحاكم، وأما لفظ الترمذي فهو:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكَتَتْ في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب: صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تَـعْلو قلبه، وهو الرانُ الذي ذكر الله تعالى» قال في: (التيسير): أخرجه الترمذي وصححه.

قـال: والنكت: الأثـر في الشيء، وران علـى قلبـه: أي: غطى ا هـ.

فعليك أيها المؤمن بكثرة الاستغفار لتصقل به مرآة قلبك،

فتتجلى فيها تجليات ربك جل وعلا.

ويرحم الله تعالى القائل:

إذا سكن الغدير على صفاءٍ وجَنَّب أَنْ يُحَرِّكه النسيم
بَدتْ فيه السماء بلا امتراءٍ كَذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قُلوب أَرباب التجلِّي يُرى في صفوها الله العظيم

هذا وإنَّ ملازمة الاستغفار تُخْرج العبد مِنَ المضايق والهموم والأكدار:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ لزم ـ أي: لازم ـ الاستغفار: جعل الله تعالى له مِنْ كل همٍّ فَرَجَاً، ومِنْ كل ضيق مخرجاً، ورزقه مِنْ حيث لا يحتسب»(١).

وقد بشر النبي صلى الله عليه وآله وسلم المكثرين من الاستغفار بطوبى:

فعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «طُوبى لمن وُجِدَ في صحيفته استغفار كثير»(٢).

وطوبى على وزن فُعْلى، كبُشرى، وزُلفى، والمعنى: فله طيب الحياة، وطيب الممات، وطيب المحشر والمنشر، وطيب المُقام

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه إلخ.
(٢) قال الحافظ المنذري: رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، والبيهقي.

في الجنة، وطيب الطعام والشراب فيها، وطيب الظلال، وطيب الكرم الإلّهي والنوال. . .

وروى البيهقي وغيره، عن الزبير رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ أحبَّ أَنْ تَسُرَّه صحيفته فليكثر فيها مِنَ الاستغفار».

وفي كثرة الاستغفار خِذلان للشيطان، وإرضاء للرحمن جلَّ وعلا:

جاء في الحديث[1]، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال إبليس: يا ربِّ وعزّتك لا أبرحُ أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم.

فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

الله تعالى يعلن لعباده أَنَّهم مُعرَّضون للخطايا في الليل والنهار، ويأمرهم أن يستغفروه، ويَعدهم أَنَّهم إذا استغفروه يَغْفر لهم، وهو سبحانه لا يخلف وعده:

روى الإمام مسلم في: (صحيحه) عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله وآله وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

---

(١) رواه الإمام أحمد، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كما في: (ترغيب) المنذري.

«**يا عبادي** إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحَرَّماً فلا تظالَموا.

يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلاّ من هديته، فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي كلُّكم جائع إلاّ من أطعمتُه، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي كلُّكم عارٍ إلا من كسوتُه، فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي إنَّكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني، وَلَنْ تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لَوْ أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكُم؛ كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم: ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي لَوْ أَنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم؛ كانوا على أفجر قلب رجل واحد: مانقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي لو أنَّ أَوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم: قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مِمَّا عندي إلاَّ كما ينقص المِخْيط إذا أُدخل البحر.

يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوفيكم إيَّاها؛ فمَنْ وَجد خيراً فليحمد الله، ومَنَ وَجد غير ذلك فلا يَلُومنَّ إلا نفسه» هذا لفظ مسلم في: (صحيحه).

فقوله سبحانه في الحديث القدسي:

«يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

في هذا إعلان وبيان للعباد أنّه سبحانه لا يظلم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، ولا يريد أن يَظلم كما قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾، وكما بين سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وقد بيَّن سبحانه أنّه لا يظلم مثقال ذرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهو سبحانه الملك الحقُّ ليس بظالم في جميع تصرفاته في مخلوقاته، ولا في قضائه ولا في قدره، ولا في سائر أفعاله جل وعلا.

وقد حرم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فَيَحْرُم على كل عَبْد أنْ يظلم غيره بنوع من أنواع الظلم، كا قال صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته في حجة الوداع: «أَلاَ وإنَّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ـ أَلا هل بلَّغتُ، ألا هل بلغتُ، ألا هل بلَّغت؛ اللهم اشهد».

وفي رواية أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبته في حجة الوداع: «اسمعوا مني تعيشوا ـ أي: عيشةً طيبة هنية ـ أَلاَ لا تظالموا، إنَّه لا يحل مال امرىء مسلم إلاَّ عن طيب نفس مِنْهُ».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل:

«يا عبادي إنّكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم».

هذا يدلك على أنَّ أحوج ما يكون إليه العبد هو الاستغفار ـ أي: طلب المغفرة من الله تعالى، لأنه يُخطىء بالليل والنهار، فعليه بكثرة الاستغفار.

وقد أثنى الله تعالى على عباده المستغفرين بالأسحار قال الله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

فهم مواظبون على الاستغفار بالأسحار، ألصقوا بها استغفارهم، ولذا جاء النصّ بالباء فقال سبحانه: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ لمواظبتهم على ذلك، اهتماماً بنيل المغفرة، فهم يدعون الله تعالى بالأسحار، ويسألونه سبحانه، ويستغفرونه، دائبين ودائمين على ذلك، وإنما فعلوا ذلك لأن الأسحار هي أوقات تنزلات ربِّ العزة، وفتحه أبواب العطاء والجود والرحمة على وجه أعظم وأكبر، ويدل على ذلك الأحاديث التالية:

روى الشيخان وغيرهما، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يتنزَّل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ـ حين يبقى ثلثُ الليل الآخِر، يقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فَأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

وفي رواية لمسلم: «مَن يُقرض غيرَ عديم ولا ظلوم؟ حتى يطلع الفجر».

وفي رواية لغيرهما: «هَل مِنْ تائب فأتوب عليه؟ مَنْ ذَا الذي يَسترزقني فَأَرزقه؟ مَنْ ذَا الذي يستكشف الضُرَّ فأكشف عنه؟ أَلاَ سقيم يَستشفي فُيشفى؟».

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لولا أَنْ أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك مع الوضوء، ولأخَّرْتُ العِشاء إلى ثلث الليل ـ أو «نصف الليل» شك الراوي ـ فإذا مضى «ثلث الليل» ـ أو «نصف الليل» ـ نزل الله جل وعَزَّ إلى السماء الدنيا فقال: هل مِن سائل فَأَعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مستغفر فأغفر له؟ هل مِنْ تائب فأتوب عليه؟ هل مِنْ داعٍ فَأجيبه، حتى يطلع الفجر».

وروى الإمام أحمد أيضاً، عن رِفاعة الجهني قال: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى إذا كُنّا بالكديد ـ أو قال: بقليد ـ جَعل رجال مِنَّا يستأذنون إلى أهليهم فيؤذن لهم.

قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال خيراً، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أشهد عند الله: لا يموت عبد شهد أَنْ لا إلَه إلا الله وأَنَّ محمداً رسول الله صادقاً مِنْ قلبه ثم يُسدِّد إلا سُلِك في الجنة».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعدني ربي عز وجل أَنْ يُدخل من أُمتي سبعين ألفاً بغير حساب، وإنّي لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤوا أنتم ومَنْ صلح مِنْ أَزواجكم وذراريكم مساكنَ في الجنة».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مَضى نصف الليل ـ أو

ثلث الليل ـ ينزل الله عز وجلَّ إلى السماء الدنيا فيقول: لا أسأل أحداً عن عبادي غيري.

مَنْ ذا الذي يَستغفرني فأغفر له؟ مَنْ ذا الذي يَدعوني فأستجيب له؟ مَنْ ذا الذي يَسألني فأعطيه؟ حتى ينفجر الصبح».

وجاء في رواية لمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه ـ يَنزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هَل مِنْ سائل فيُعطى؟ هل مِنْ داعٍ فيستجاب له؟ هل مِنْ مستغفر يُغفر له؟حتى ينفجر الصبح»[1].

فالله تعالى يَتَجلَّى على عباده وقت السحر ـ أي: الثلث الأخير ـ بالغفران والعطاء، والإحسان، وإجابة الدعاء، وتحقيق الرجاء، فلا يُردُّ فيه سائل، ولا يخيب فيه آمل.

وقد جاء في الحديث عن عَمرو بن عبسة رضي الله عنه، أنَّه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أقرب ما يكون العبد من الربِّ في جوف الليل» وفي رواية النسائي: «الآخر» ـ أي: الثلث الأخير ـ قال: «فإنَ استطعتَ أَنْ تكون ممن يذكر الله عز وجل في تلك الساعة فكن»[2].

وروى الترمذي، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أيُّ الدعاء أسمع ـ أي: أرجى إجابة؟.

---

(١) كذا في: (ترغيب) المنذري.

(٢) قال في: (الترغيب): رواه أبو داود والترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. ا هـ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جوفَ الليل، ودبر الصلوات المكتوبات» أي: وراء الصلوات المفروضة.

فيا أخي المسلم كن حريصاً كلَّ الحرص، وابذل جُهدك ما استطعت في أَنْ تكون وقت السحر مِمَّنْ يذكر الله تعالى ـ بصلاة وقرآن، ودعاء واستغفار، فإنَّ وقت السَّحَر وقت قرب وإجابة، يَطْوي فيه العبد المؤمن مراحل في السير والسلوك، إلى ملك الملوك، وينال فيه مراتب في القرب والحبِّ، فإنَّ أقرب ما يكون الربُّ جلا وعلا مِنَ العبد في جوف الليل الآخر ـ كما تقدم في الحديث.

وقد جاء أيضاً في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجلَّ وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» رواه مسلم.

فإنَّ أقرب ما يكون الرب عز وجلَّ من العبد المؤمن في جوف الليل الآخر، وإن أقْرَب ما يكون العبد المؤمن مِنْ ربه عز وجلَّ وهو ساجد.

فافهم ذلك، وواظب على ذلك، فإن لَمْ تستطع أَن تقوم كلَّ ليلة وقت السحر فَقُم بعض الليالي وقت السحر، ولو قبل الفجر بقليل، بحيث تُصلي مُتهجداً ركعات ثمانية إلى اثنتي عشرة ركعة ـ وزد ما شئت، واختم ذلك بالاستغفار.

قال نافع: (كان ابن عمر رضي الله عنهما يُحيي الليل صلاة، ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ أي: دخلنا في السحر؟ قال نافع: فأقول لا: فيعاود الصلاة، فإذا قلت له: نعم ـ أي: دخلنا في السحر ـ

قعد يستغفر الله تعالى حتى الفجر).

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يَخرج مِنْ ناحية داره مستخفياً وقت السحر، وفي رواية: كان يُسمع ذلك من داره وقت السحر فيقول: (اللهم إنك دعوتَني فأجبتك، وأمرتني فأطعتك، وهذا السحر فاغفر لي).

فقيل له في ذلك.

فقال: (إنَّ يعقوب عليه السلام حين سَوَّف بنيه ـ أي: وعدهم بأن يستغفر لهم وقال لهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أخَّرهم إلى السحر) أي: لأنه وقت إجابة.

وروى ابن جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سُئِل لِمَ أخَّر يعقوب عليه السلام بنيه في الاستغفار؟ قال: «أخرهم إلى السحر، لأنَّ دعاء السحر مستجاب».

فجميع الأسحار يستجاب فيها الدعاء؛ كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، ومِنْ أَشَدِّها رجاءً سحر ليلة الجمعة:

روى ابن جرير وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قال: «حتى تأتي ليلة الجمعة».

وجاء في حديث طويل، رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «وقد قال أخي يعقوب لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ

رَبِّيَ ﷻ» يقول: «حتى تأتي ليلة الجمعة» الحديث[1].

وأَخرج ابن جرير، وابن مَرْدُوْيَهْ، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نستغفر بالأسحار سبعين استغفارة).

وروى ابن جرير أيضاً، عن السيد الإمام جعفر بن السيد الإمام محمد قال: (مَنْ صَلَّى مِنَ الليل ثم استغفر في آخر الليل سبعين مَرَّة كُتب من المستغفرين) أي: من المستغفرين بالأسحار.

وأخرج ابن أبي شيبة، والإمام أحمد في: (الزهد) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بلغنا أَنَّ داود عليه السلام سأل جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل: أيُّ الليل أفضل؟

فقال: يا داود ما أدري إلاَّ أَنَّ العرش يهتزّ[2] في السحر». اهـ كما في: (الدر المنثور) وغيره.

* * *

---

(١) انظر جميع ذلك في: (الدر المنثور) وتفسير ابن كثير وغيرهما.

(٢) أي: يهتز طرباً من عظمة التجلي، وهذا دليل على فضل وقت السحر، وقد فصلت الكلام على التجليات والتنزلات الربانية في كتاب: (التقرب) فارجع إليه ينفعك الله تعالى به.